المكـان في الأدب " المفهـوم والـدّلالة"

Place in literature understood and significance

كمـال محمـودي [1]، شهـرزاد محمـودي [2]

kamel mahmoudi [1], chahrazed mahmoudi [2]

[1] جامعـة الجزائـر 2 (الجزائر) ، mah.kamel18@gmail.com

[2] جامعـة تيزي وزو (الجزائر) ، chahramahmoudi2017@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/11 تاريخ القبول: 2021/12/13 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص: حظي مفهوم المكان في الرواية باهتمام كبير من الدارسين وذلك للدور الفعّال الذي يقوم به في النص الروائي، فهو عنصر مكمل لباقي العناصر السردية الأخرى، ونتيجة لذلك ظهرت مجموعة من التعاريف لمفهوم المكان وسنحاول في هذا البحث أن نلخص بعض مفاهيم المكان و دلالاته.

الكلمات المفاتيح: المكان، المفهوم ، الدلالة. الأدب.

Abstract : The concept of place in the novel has received great attention from scholars, for the effective role it plays in the fictional text, as it is a complementary element to the rest of the other narrative elements, and as a result, a set of definitions of the concept of place have emerged, and we will try in this research to summarize some of the concepts of place and its connotations.

Key words:location, concept, connotation. literature.

المؤلف المرسل: كمال محمودي ، الإيميل: mah.kamel18@gmail.com

1.مقـدّمـة:

نظرا للأهمية الكبيرة التي نالها مفهوم المكان في النقد الروائي، فقد اختلف كافة المشتغلين به في تحديد مفهوم واضح للمكان فنجد كل واحد يعرّفه على حسب الزاوية التي ينظر منها فالمفهوم الفلسفي للمكان يختلف عن المفهوم الفنّي له وهنا يمكن صياغة الإشكالية وفق ما يلي: ما هي المفاهيم المتعددة للمكان و ما هي دلالاتها؟

2. المفهوم اللّغوي للمكان:

إن المكان من الناحية اللغوية على اختلاف المعجم بمعنى الموضع إذ أورده" ابن منظور" في معجم "لسان العرب" في باب الميم تحت جذر "مكن" و" المكان الموضع و الجمع أمكنة و أماكن جمع الجمع" [(1)] ، و قد أورده في مادة كون:" و المكان المنزلة...و المكانة الموضع.." كما يتكرر المفهوم اللغوي للمكان بمعنى الموضع في المعاجم اللغوية على اختلاف جامعي اللغة من ولاة المعاجم مثل:" السيد محمد مرتضي الزبيدي" في معجم ناج العروس حيث يقول " المكان الموضع الحاوي للشيء وعند بعض المتكلمين هو عرض و اجتماع جسمين حاو ومحوى....فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين و ليس هذا بالمعروف في اللغة، قال الراغب (ج أمكنة) كقذال و أقذلة و أماكن جمع الجمع."[(2)]

كما نجد أن أشار إليه بعض الفلاسفة في معاجمهم، و كان يعني عندهم أيضا معنى (الموضع) حيث يقول جميل صليبا " المكان الموضع و جمع أمكنة و هو المحل، المحدد الذي يشغله الجسم تقول مكان فسيح و مكان ضيق و هو مرادف للامتداد."[(3)] أي أن المكان قد يكون فسيحا متسع كما يكون ضيق محدود، ومن هذا التعريف الفلسفي نجده يتقارب مع التعريفات اللغوية السابقة من حيث المعنى أي معنى المكان.

3 .تعريف المكان اصطلاحا:

بعدما عرفنا المكان لغويا نحاول أن نعرف من الناحية الاصطلاحية لأنّه " من العناصر الأساسية في تشكيل أي عمل إبداعي و لاسيما حين يتناول المبدع عملا يرتكز على السيرة، لأنه فن سردي يستند

على مرجعية معروفة، و يستند أيضا على ذاكرة نشطة "[4] و على حد قول كانط: "المكان يتضمن جميع الأشياء التي يمكن أن تظهر لنا خارجيا ."[5] أي أنّ كل ما نراه في الخارج يسمى الموضع و المكان.

و يمكن القول أيضا أنّ المكان هو: " مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف، أو الأشكال المتغيرة ..الخ، تقوم بينهما علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الاتصال، المسافة..." [6] فالمكان لا يمكن إدراكه إلا من خلال أشياء ملموسة و حسية و لها علاقة ببعض الظواهر و الوظائف.

كما يتعدد المكان، و يتاح فيها المجال لتعدد الشخصيات، و تعدد المواقف و الأحداث، فمن خلال عنصر المكان " ندرك حجم ارتباط الرواية بالواقع أو بالتّخييل المتعلق بالواقع و لا يمثل المكان في الرواية الحديثة عنصرا مكملا للمشهد فقط، بل قد يكون شخصية فاعلة في تطور الأحداث و تحديد مساراتها."[7]أي أنّ المكان له دور كبير في إبلاغ المعنى للمتلقي الذي يتلقى الرواية، لذلك نجد الكثير من الروائيين يهتمون بالمكان في رواياتهم، و لذلك يمكن اعتبار المكان من حيث" درجة العناية به وصلته بالواقع نقطة اختلاف بين الروائيين، فهناك من يمنح أماكن رواياته أسماء من ابتكاره فيجعلها أقرب إلى التجريد، و هناك من يعتمد أسماء ذات مرجعية واقعية، مع أنّ الطريقتين لا تختلفان إلا شكلا، أما من حيث الدلالة فغالبا ما يؤول الفضاء من خلال صلته بالواقع تلميحا أو تصريحا، بما أن القارئ يسعى إلى إعادة تشكيل عناصره عبر توصيله بمرجعيته الواقعية."[8]

نفهم من هذا أن اختيار المكان و اسمه من تأليف مبدع الرواية ليست عملية بسيطة، بل هي معقدة يدخل في حساباتها الكثير من العوامل التي يضعها المبدع نصب عينيه، و هذا من حيث الشكل والدلالة، لأنها نتاج الشكل، كما نستطيع أن شكل آخر روائي من الدلالة السابقة، فكل نص أدبي سابق عليه و منتج لنص لاحق.

فالمكان الروائي : هو مكان بعينه" تجرى فيه أحداث الرواية، بينما يشير الفضاء الروائي إلى المسرح الروائي بأكمله و يكون المكان داخله جزءا منه، و هنا كما يرى **باختين** أن لا فصل بين المكان والزمان في

تشكل العمل الفني."[9] فالمكان هو أساس الفضاء المسرحي و الروائي، كما نجد له علاقة بالزمن ، فلا يمكن في العمل الروائي أن نفصل بين المكان و الزمان أو الزمكان.

4. المفهوم الفلسفي للمكان:

عالج الفلاسفة المكان و أطوه أهمية كبرى و أفردوا له مكانة خاصة في معظم المؤلفات، فجاء على لسان أفلاطون الذّي يعد الرائد الأول في إعطاء المكان بعده المفهومي الفلسفي فهو يرى أنّه " إطار موجود بالضرورة منذ الأزل "[10]، و عرفه " بالبعد المجرد الموجود في الهيولى إذ يسمح بتعاقب الأجسام فيه "[11]، أي أن المكان قديم في التصور و الدراسة قدم الإنسان و هذا نظرا لأهميته، ثم يصفه أفلاطون بأنّه البعد أو المسافة أو الفضاء التي تتعاقب فيها الأجسام .

أما عند أرسطو المكان يعد" محلا"، و عند إقليدس فإنه ذو ثلاثة أبعاد هي الطول و العرض والعمق."[12] أي أنه عرفه تعريفا رياضيا فعند جداء الطول و العرض و العمق، تعني رياضيا الحجم فالمكان يعني به أرسطو حجم الشيء.

وذهب ابن الهيثم مؤكدا أقوال من قال " إن المكان هو الأبعاد "[13] أي أنّه يشاطر أرسطو في تعريفه للمكان، أما في الدراسات الحديثة للمكان ، أما في الدراسات الحديثة للمكان فنجده لدى ديكارت " الممتد من الأبعاد الثلاثة و عند **اسبينوزا** و **مالبرانش** هو الامتداد غير متناهي، أما باشلار فإنّ مجمل نظراته تتلخص بأن الإنسان دون المكان –لاسيما البيت– يصبح كاتبا متشردا لا استقرار له، والمكان عند (كانط)" تصور غير تجريبي أي أنّه مجرد من التجربة الخارجية."[14] فكانط يؤكد من خلال تصوره للمكان أنّه خلق من الذهن و أن المكان ليس مستمدا من التجربة الخارجية و كثرة الأمكنة ليست إلا جزء من المكان.

ويقول أفلاطون في شأن المكان:" إن أهم خاصية لذلك البرهان على وجود المحل هي كونه هجينة وحل وسط بين القياس و الحس"[15] أي أن هذا الحل الوسط وقع فيه أثناء تصوره للمكان من حيث هو ذو بعد رمزي حقيقي من جهة، و في طريقة إدراكه، هل يدرك الحواس أم بالمنطق.

إنّ المكان أو الحيّز في الخطاب الفلسفي بكونه يرتبط بالفراغ، أو الخلاء أو الهيولى أو الصورة المجردة، أو المكان الذي ليس فيه متمكن أي مكان مجرد و بذلك يكون لا شيء مطلق يدخل فيه الوجود و العدم فالمكان بالمفهوم الفلسفي العام يمثل الفراغ المكتوب باللغة و غير المكتوب، و يمثل الهيولى والصّورة وغيرها.

أما **انشتاين** في نظريته النسبية التي أثبتت أن العالم يتحرك على وفق حقيقة متصلة في فكرة محايثة الزمكان، لأن الحقيقة توجد في الزمن و المكان الذي يجسد لحظة فهم الأشياء المتأطرة في الأبعاد الأربعة: الطول و العرض و العمق، التي لا يمكن أن تفهم إلا في حدود بعد رابع هو الزمان، وبذلك شكل الزمان و المكان كتلة واحدة لا يمكن أن تنفصل إلا في إحساسنا، لأنّ وجود المكان ضروري جدا للإحساس بمرور الحوادث و مرور الوقت."[16]

نلاحظ أنّ **انشتاين** وسع في مفهوم المكان عند إقليدس و أضاف له بعد رابع و هو الزمن، فالمكان له وظائف داخلية و خارجية و علائق مع الزمن . وهذا الخلاف في المفهوم الفلسفي للمكان يرجع إلى كثرة و تعدد الدراسات الفلسفية و لهذا شكل المكان حضور دائما لدى نفسية المبدع.

5. المفهوم الفيزيائي للمكان:

لقد تعددت تعاريف المكان من الناحية الفيزيائية نذكر البعض منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، يقول **انشتاين**:" المكان نقصد به المسافات التي تفصل بين المدن أو بين البلدان أو بين الأرض وبقية الكواكب والنجوم أو بين نقطتين، أو عدة نقط في هذه الورقة"[17] فالمكان فيزيائيا عند **انشتاين** هي المسافة بين الأشياء و البلدان أو بين النقاط، فهذا المكان يكون قابل للقياس و الكم و يكون مرتبط بالزمن. وطبيعة العلاقة بين الإنسان والفضاء(المكان) الذي به" ليست من النوع الفيزيائي فحسب فمفهوم الفضاء يختلف بين الشعوب والثقافات والحضارات..و هذا ما يقودنا إلى البحث في مفهوم الفضاء (المكاني) الاجتماعي، و علاقته الوشيجة بالفضاء المسرحي و تطوراته"[18] فالمكان أو الفضاء في الفيزياء يعبر عن مجمل المكان الفيزيائي التي تشغله المادة و تتواجد فيه الأجسام الصغيرة و الكبيرة.

6. المفهوم الفنّي للمكان:

يعتبر المكان من بين أهم عناصر البناء الفني للرواية، ارتبط منذ القدم بفكر الإنسان و فلسفته حتى العصر الحديث، فالمكان يعني الوجود بالنسبة للإنسان، و من هذا الارتباط بين الإنسان و المكان " تنشأ العلاقة بين المكان و القصة منذ القديم فالمكان هو الإطار العام للقصة ، و مهما يكن فإن القصة لابد أن ترتبط بأي شكل من الأشكال بالمكان على اختلاف قيمة المكان و دوره في بنية العمل، فالمكان وعاء للحدث و الشخصية ...أو هو مجرد خلفية واضحة أو باهتة على السواء، مثلما هو أيضا بمثابة بعد مستقيم أو حلزوني أو دائري أو ما شئت، يتسع لحركة الشخص أو مسيرة الحدث."[19]

وكان الانتشار الأوسع لهذا الفهم المتطور للمكان و جماليته في النقد الأدبي العربي الحديث.. لأن المكانية تتصل بجوهر العمل الفني و تعنى به الصورة النفسية و تحدث النقاد المحدثون عن قيمة الصورة في عملية التعبير الفني ، وأثرها المباشر في تشكيل استقلالية النّص، و ضرورة الاتحاد و الترابط بين الصور، وقد أشار إلى ذلك عبد القادر الرباعي قائلا :" دراسة الصورة الفنية وتحليل عناصرها وعلاقاتها، ربما كانت من أفضل الوسائل للكشف عن المعاني الخفية للنصوص الأدبية التي كونتها عقلية أصحابها، و رؤيتهم للكون و الإنسان و الحياة."[20] فالظاهرة اللغوية لها علاقة وثيقة بالصورة ، و لها أهمية بالغة و ذات حضور دائم في البناء الروائي" إنّ للمكان أهمية بوصفه ملموسا، إذ باستطاعة الأديب أن يوظفه لتجسيد الأفكار و الرموز و الحقائق المجردة و بالتالي تقريبها من الواقع."[21]

فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة و مسافة مناسبة بالكلمات و التعابير التي يخرجها المبدع في أحسن صورة فالمكان في السرد " لا يخضع للتحديدات الفيزيائية الصارمة ففضاء الرواية مكان منته وغير مستمر ولا متجانس وهو يعيش على محدوديته، كما أنّه فضاء مليء بالحواجز والثغرات وخاص بالأصوات والألوان والروائح ، وباختصار فإنّه ليس فيه أي شيء تقليدي." [22] أي أنّ المكان الفني يعتبر إبداعا لغويا فبنية مكان النص ترتبط بالخيال و بأبعاده الهندسية حتى تجذب نحوها القارئ المتخيل.

7. الفضاء والحيز:

إنّ المكان شأنه شأن المفاهيم الأخرى لا يستند على مفهوم واحد يجمع عليه كافة المشتغلين به وهذا على حسب وجهات نظرهم، و الزاوية التي ينظرون منها ومن بين المصطلحات التي تتداخل مع مصطلح المكان حتى ليصعب التفريق بينهم مصطلحا الفضاء، والحيز حيث أنّ حميد لحمداني يعادل بين مصطلحي الفضاء والمكان يقول:" فالفضاء هنا، هو معادل لمفهوم المكان في الرّواية، ولا يقصد به بالطبع المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كتبت بها الرواية و لكن ذلك المكان التي تصوره قصتها المتخيلة." [23]

فحميد لحميداني يشاغل على التصور الجغرافي للفضاء كمقابل للمكان فهو يرى بأن الفضاء أشمل من المكان الواحد يقول" المكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجلات الفضاء الرّوائي."[24] و من جهة أخرى نجد من يقابل بين مصطلحي الحيز و الفضاء ...و إذا كانت الجغرافيا خاصيته بالحيز الواقعي، فإن الحيز لدينا هو مالا يلتمس فقط في الأعمال السردية لكن يلتمس في جميع الكتابات الأدبية."[25] وقد أكد صحة ما ذهب إليه من خلال الدراسات التطبيقية التي قام بها لأعمال روائية جزائرية من حلال عقد مقارنة للحيز بين مجموعة من الرّوايات.

8. خـاتـمـة:

لقد تعددت مفاهيم المكان وتباينت أشكاله في النقد و هذا راجع إلى تعدد المذاهب النّقدية وتباين مناهجها، فكل مذهب نقدي يعرف المكان على حسب الزاوية التي ينظر منها لكنّ القاسم المشترك الذي يشتركون فيه هو أنّ المكان هو الأرضية التي تقع فيها أحداث الرّواية بالإضافة إلى أنّه الحامل المادي لأي عمل فني.

9. الهـوامـش:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، بيروت، لبنان، 1993، ص569.
2. السيد محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، دار الصادر، ج9، بيروت، لبنان، ص(348-349).
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، مكتبة المدرسة، دار الكتاب العالمي، لبنان. 1999، ص112
4. سهام السامرائي، رواية الأرض و التاريخ و الهوية- قراءة في رواية" عمكا" لسعدي المالح، كلية التربية جامعة سامراء، ط1، 2015، ص108.

5. المرجع نفسه، ص108.

6. المرجع نفسه، ص108.

7.المنجي عمر، الفضاء في رواية الثورة، دراسة مقارنة بين " الآن، هنا" لمنيف، و "الأم " لغوركي ص206.

8. المنجي عمر، الفضاء في رواية الثورة، ص206.

9. عاطف الحاج سعيد، أيقونة الرواية السودانية، بركة ساكن، دط، دت.

10. حسين علي عبد الحسين الدخيلي، الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الحامد للنشر و التوزيع، الأردن ،ط1، 2011، ص24.

11. المرجع نفسه، ص24.

12. المرجع نفسه، ص25.

13. المرجع نفسه، ص25.

14.المرجع نفسه، ص25.

15. مصطفى الفشار، فكرة الألوهية عند أفلاطون، الدار المصرية السعودية للطباع والنشر، ط4، القاهرة، مصر، دت، ص149.

16. جعفر أحمد عبد الله الشيخ عبوش، المكان في روايات فاتح عبد السلام، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، قسم اللغة العربية،إشراف عمار أحمد الصفار، 2011، ص14-15.

17. محمد عمارة، المعتزلة و مشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق، ط2، القاهرة، مصر، 1988 ص56.

18.أكرم اليوسف، الفضاء المسرحي –بين النص الاجتماعي و الاقتصاد الدرامي، دار مؤسسة رسلان دمشق،سوريا، ط1، 2010، ص31.

19. إبراهيم السعافين، تحولات السرد، ص165.

20. إبراهيم عبد الكريم البطوش، الصورة الفنية في شعر ابن القيسراني، دار المأمون للنشر و التوزيع دط، دت، ص17-18.

21. يوري لوتمان، سيمياء الكون، ترجمة عبد الحميد نوسي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص113.

22. نضال الصالح، آليات التشكيل السردي، مجلة الإتحاد العام للأدباء و الكتاب العرب، العدد(49-50)، دمشق، 200، ص78.

23.حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور نقدي أدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت لبنان 2000، ص54.

24. المرج نفسه، ص63.

25. عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار العرب للنشر و التوزيع، ط4، الجزائر 2007 ص134.

10. قـائمــة المـراجـع:

1) إبراهيم عبد الكريم البطوش، الصورة الفنية في شعر ابن القيسراني، دار المأمون للنشر والتوزيع دط، دت.
2) ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، بيروت، لبنان، 1993.
3) أكرم اليوسف، الفضاء المسرحي –بين النص الاجتماعي و الاقتصاد الدرامي، دار مؤسسة رسلان، دمشق،سوريا، ط1، 2010.
4) جعفر أحمد عبد الله الشيخ عبوش، المكان في روايات فاتح عبد السلام، رسالة ماجستير جامعة الموصل، قسم اللغة العربية،إشراف عمار أحمد الصفار، 2011.
5) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، مكتبة المدرسة، دار الكتاب العالمي لبنان، 1999.
6) حسين علي عبد الحسين الدخيلي، الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي و الإسلامي، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن ،ط1، 2011.
7) حميد لحمداني، بنية النّص السّردي من منظور نقدي أدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت لبنان، 2000.
8) سهام السامرائي، رواية الأرض و التاريخ و الهوية- قراءة في رواية" عمكا" لسعدي المالح، كلية التربية، جامعة سامراء، ط1، دت.
9) السيد محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، دار الصادر، ج9، بيروت، لبنان، دت.
10) عاطف الحاج سعيد، أيقونة الرواية السودانية، بركة ساكن، دط، دت.
11) عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار العرب للنشر و التوزيع، ط4، الجزائر 2007.
12) محمد عمارة، المعتزلة و مشكلة الحرية الإنسانية، دار الشروق، ط2، القاهرة، مصر، 1988.
13) مصطفى الفشار، فكرة الألوهية عند أفلاطون، الدار المصرية السعودية للطباع و النشر ط4 القاهرة، مصر، دت.
14) المنجي عمر، الفضاء في رواية الثورة، دراسة مقارنة بين " الآن، هنا" لمنيف، و "الأم " لغوركي.
15) نضال الصالح، آليات التشكيل السردي، مجلة الإتحاد العام للأدباء و الكتاب العرب العدد(49-50)، دمشق، 2000.
16) يوري لوتمان، سيمياء الكون، ترجمة عبد الحميد نوسي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1997.